آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
مجلة علميّة نصف سنويّة (مقالة علميّة محكّمة)، السنة ٢٢، العدد ١، ربيع و صيف ١٤٤٠ هـ.ق، ٣١١-٣٣٥

دراسة الفكر الفلسفي لنجيب محفوظ حول العلم الحديث في خطابه السردي
شخصية «عرفة» في *أولاد حارتنا* نموذجا

عليرضا نظري*

الملخص

رواية *أولاد حارتنا* لنجيب محفوظ، رواية رمزية تعيد كتابة تاريخ حياة البشر على محورية حياة الأنبياء الكبار في قالب سردي ولكنها في الحقيقة أقرب إلى بيان فلسفي، خاصةً في الجزء الأخير منها حيث تدخل شخصية «عرفة» في الرواية وتدور كلّ الأحداث حولها رمزا للعلم الحديث. قام محفوظ بتوظيف هذه شخصية لعرض فكره الفلسفي حول العلم الحديث وصراعه مع الدين وخضوعه أمام حكم السلطة وتكمن ضرورة البحث في أنّ هذا الفكر الفلسفي حول العلم هو فكر غربي في بدايته فكيف أثّر على كثير من منوري الأفكار و الكتّاب في العالم الإسلامي وصاروا مبلغين لهذه الفكرة مستخدمين الفنون الأدبية ولذلک يهدف هذا البحث بالمنهج الوصفي التحليلي و باستقراء تام لعناصر القصة في قسم عرفة، تسليط الضوء على هذا الجانب من الرواية لتبيين المظاهر الغربية للعلم والتي رمز بها محفوظ في عرفة ولنبيّن أنّ محفوظ يمثّل في شخصية عرفة فكرا فلسفيا

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة الإمام الخميني الدولية، a.nazari@hum.ikiu.ac.ir
تاريخ الوصول: ١٣٩٨/٠٣/١٢، تاريخ القبول: ١٣٩٨/٠٥/٢٥

Copyright © 2018, IHCS (Institute for Humanities and Cultural Studies). This is an Open Access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International, which permits others to download this work, share it with others and Adapt the material for any purpose

خاصا بالنسبة للعلم من حيث موطنه وتضاده بالدين و استخدامه السيئ من قبل السلطات الحاكمة وقد أصبح عرفة في خطاب محفوظ السردي، أفضل تمثيل للعلم الذي نهض بخلوص ليخدم البشرية بسحره مغايرا بعض الأحيان ما جاء في الأديان السماوية، فالنتيجة التي يصورها محفوظ لهذا القيام ليست الّا العلمانية القائلة بموت الإله وخضوع العلم أمام السلطوية وتضحية العواطف البشرية.

المفردات الرئيسية: الخطاب السردي، الشخصية الروائية، العلم الحديث، نجيب محفوظ، أولاد حارتنا، عرفة.

١. مقدمة

شهد العالم العربي في عصرنا الحديث ادباء كبارا في الأدب السردي، ولكن لم يحظ أحد منهم الشعبية التي نالها نجيب محفوظ الكاتب الروائي المصري الذي قد قام في حياته الأدبية الطويلة بتجربة اشكال مختلفة من الكتابة التاريخية والواقعية والرمزية والقصص القصيرة. أما اشتهاره فكان لا في العالم العربي فحسب بل في العالم كله بسبب رواية «أولاد حارتنا» المهدية له جائزة نوبل الأدبية. من المؤكد أن هذه الرواية التي يحسبها البعض الباعث في إعطاء جائزة نوبل كهدية من الغرب لما قام به محفوظ من الخدمة للتفكير الغربي، قد حازت حيزا كبيرا من الإهتمام النقدي. كانت حساسية بعض المؤسسات الدينية كالأزهر الشريف في بُعدها التاريخي أو ما سمّي بإعادة كتابة حياة الأنبياء الكبار واعتبرها إهانة للأنبياء مثل موسى (ع) وعيسى (ع) ونبيّ الإسلام (ص) ولكن الحساسية الكبرى تكمن في الجزء الأخير من الرواية حيث تدخل شخصية عرفة في القصة؛ إذن مشكلة بحثنا أو المسألة الأولى أيضا تكمن في هذا الجزء الأخير لتبيين ماهية ومظاهر الفكر الفلسفي الذي قد طرحه محفوظ حول العلم وصلاتها بالسلطة والأحاسيس البشرية والدين بحيث أن شخصية عرفة في جميع أقواله وأعماله تعّرب عن وجه نظر محفوظ حيال العلم في العصر الحديث وفي العالم الغربي خاصة ويمكن اعتبارها «بيانا غربيا» حول العلم تمّ تقديمه مِن قبل محفوظ متأثرا ببعض الكتّاب السياسيين مثل سلامة موسى.

و**ضرورة** مثل هذا البحث تكمن في أن هذه الرواية الجريئة قد صدرت في بلد مسلم ومن كاتب مسلم عاش في ظل الحضارة الإسلامية العريقة وفي العالم الإسلامي الذي يحترم الدين والشريعة في أعلى حده ولايقبل مس الأنبياء بسوء أبدا والعلم في هذه الحضارة لها مكانة خاصة رفيعة مرفقة بالدين لاصراع بينهما ولكن الروائي محفوظ يستخدم فن الرواية لإعادة كتابة الأنبياء خلافا على ما رآه العالم الإسلامي في جهة وفي جهة أخرى ومهمة لنا في بحثنا يجعل للعلم مكانة متفاوتة عما نرآه في العالم الإسلامي وعلامات هذا الفكر الفلسفي والتي تظهر على أقوال وأحداث حول شخصية عرفة أدبيا، يجعل من الضرورة أن نهتم بالرواية ليس كنص روائي نتمتع بروائعه الأدبية بل كنص يمثل فكرا فلسفيا بزغ في الغرب ثم سيطر على قلوب وأفكار في الشرق مع بعض التعديلات.**يهدف** هذا البحث باستخدام منهج وصفي . تحليلي، تسليط الضوء على الرواية من منظور أخر بمعالجة شخصية عرفة خاصة من منظر أعماله وأقواله وأيضا من خلال تصرفاته وشخصيات أخرى حوله ويهدف بالتركيز على هذه الشخصية أن يبين علامات الفكر الذي قد جاء خلف هذه الرواية حول العلم الحديث بذكر عدد من الأمثلة من نص الرواية. جدير بالذكر أن هذا البحث ليس إلا مجرد تقرير عن الملاحظات السردية حول شخصية عرفة في هذه الرواية و لايعني تأييد ما جاء فيه أو ما أراده الروائي محفوظ أو ما يتبناه الفكر الغربي بل بذلنا جهدنا بناء على تقرير وصفي علمي محايد، في تبيين الصفات المتعددة التي تتصف بها شخصية عرفة كرمز للعلم الحديث.

١.١ سؤال البحث

ما هي مظاهر الفكر الفلسفي حول العلم والذي يتمثل في شخصية عرفة؟

٢.١ خلفية البحث

كانت روايات نجيب محفوظ موضوع دراسات كثيرة، وبالتأكيد أن رواية *أولاد حارتنا* كباقي أعماله البارزة الأخرى لم ينج عن النقد والتحليل الأدبي وغيرالأدبي. ومن بينها يمكن لنا أن نذكر بعض المقالات لنقاد كبار في مجلة فصول نحو «أولاد حارتنا بين الإبداع الأدبي والنص

الديني» من طلعت رضوان في العدد ٤١ ومقال أخر تحت عنوان «أولاد حارتنا ومشكلة سوء الفهم» لأحمد صبرى العدد ٤٢ وبحث قيم من محمد قطب تحت عنوان «مناقشات عن الرمز والمثال (قراءة حول اولاد حارتنا بين الإبداع الأدبي والنص الديني)» في نفس العدد السابق. ومن البحوث الأخرى يمكن الإشارة إلى «أولاد حارتنا رواية وليست نصا دينيا» من أحمد عبدالمعطى الحجازى المنشورة في العدد الـ٧٥ مجله نقد وبحث من ريتا عوض المنشور في العدد ٦ من مجلة الآداب. وطبعت في إيران أيضا بحوث متعددة مثل «أولاد حارتنا نظرة دينية واجتماعية» من حسين ابويسانى المنشور في العدد الـ ٢٢ من مجله آفاق الحضارة الإسلامية. اهتمت هذه البحوث التي تمت مراجعة واستخدامها في هذه المقالة، جوانب سوء فهم الرواية وتمييزها عن النص الديني وإن عالجت الرمزية فيها عالجت شخصية «عرفة» بطريقة عابرة وموجزة للغاية وهذا ما نراه بكل وضوح حتى في كتاب «الرمزية في أدب نجيب محفوظ» لفاطمة الزهراء محمد سعيد. وعلى هذا، فإنّ شخصية عرفة والتي هي بطل القصة الحقيقي، يتمّ تحليلها في هذا المقال بالتفصيل مع الاهتمام بسيميائية العلم الحديث في شخصية عرفة كدائرة من الدوائر البحثية المفقودة حول هذه الرواية.

٢. ملخص الرواية و ما قيل عنها

١.٢ التعريف بالرواية

هذه الرواية الجريئة يمكن وصفها بلغة واضحة أنها إعادة كتابة التاريخ بشكل سردي ومن يطلّع على تاريخ البشرية بشكل عام على اساس أمهات المصادر الدينية والتاريخية يمكنه العثور على الرموز في هذه الرواية والتي تدلّ عليها المؤشرات والدلالات المعجمية والسردية. تبدأ القصة بوصف البيت الكبير الذي يعيش فيه الجبلاوي مع ابنيه أدهم (آدم) وإدريس (إبليس). يحاول إدريس بخداع أدهم الحصول على صندوق الموقوفات (سرّ الخلود) ولكنهما يواجهان غضب الجبلاوي يطردهما من البيت الكبير (الجنة) وهما يخرجان من البيت خائبين ويعيشان وراء جدرانه الأيام والليالي متمنيين غفران الجبلاوي والعودة إلى البيت. مرّ زمن طويل ولا خبر عن الغفران والعودة؛ وبمرور السنين أصبحت الحارة (العالم البشري) أوسع

وأكبر مما كانت ويتزايد سكانها. هناك تظهر جماعة تدعى «الفتوات» يقومون بتخويف أبناء الحارة والأعمال البلطجية دون مانع وعقاب وعلى هذا قام أشخاص في كل حيّ من هذه الحارة الكبيرة لإنقاذ الناس من ظلم الفتوات وهم: جبل، رفاعة وقاسم. وفي رسم هذه الشخصيات السردية يروي محفوظ حياة ثلاثة أنبياء الكبار موسى(ع)، عيسى(ع) ومحمد (ص) بالاعتماد على حياتهم الحقيقية مع بعض التعديلات التي تستلزمها السردية. بعد وفات قاسم سيطر الفتوات على الحارة وخاب أمل الناس للنجاة عن ظلمهم حتى دخل الحارة في يوم من الأيام شخص مجهول يدعى عرفة (العلم). رجل طموح يكره الفتوات ويهدف الانتقام منهم. معرفة عرفة بـ«عواطف» بنت رجل عجوز يعمل في القهوة القديمة ثمّ قتلِ العجوز بيد أحد الفتوات عزّز قرار عرفة للانتقام. بعد مدة سعى عرفة لاختراق البيت الكبير سراً والعثور على صندوق الموقوفات الذي عاقب الجبلاوي بسببه ابنيه العزيزين وحفر نقبا تحت جدار البيت الكبير ودخل غرفة الجبلاوي الخاصة ولكنه في ظلام الغرفة يواجه امرأة خادمة ويتسبّب موتها. هرب عرفة خائفا صفر اليد وفي العودة يواجه عملاء «قدرى» كبير الفتوات (السلطة) ويستخدم لخلاصه منهم الكرات النارية (القنابل) التي صنعها بالخفاء وسمّاها السحر. وفي اليوم التالي يعلَن في الحارة أن «الجبلاوي مات». واما قدري الذي قد أخبره جواسيسه بهذه المغامرة العمياء فيدعو عرفة ويشترط خلاصه من غضب الناس بسبب موت الجبلاوي، بأن يبقى عنده ويصنع له الكرات النارية. وهكذا أصبح عرفة من عبيد الفتوات وكان قصده القضاء عليهم! بعد مدة قرّر عرفة الهروب والتخلص من يد قدري لكنه يتم القبض عليه وعلى عواطف ويدفنان حيّين وهكذا ينتهى دور عرفة والآن جميع أهل الحارة ينتظرون عودة «حنش» تلميذ وعميل عرفة والذي تمكّن من الهروب ليُنجي الحارة من الفتوات.

٢.٢ ما قيل عن الرواية

يستخدم محفوظ في أعماله الواقعية الاجتماعية ومنها الثلاثية وبعض أعماله الأخرى، أسماء كثير من الأحياء والشوارع في القاهرة استخداما لافتا للنظر. وهو نفسه لاينكر هذا الحنين إلى هذه الأحياء وتأثره العميق بها حيث يقول: «إنّ هذه الأحياء هي موطن إلهامي. قد

جسدتها في أعمالي الروائية» (محفوظ نقلا عن الذوادى، ١٩٨٦: ٣٣) أما في تسمية *أولاد حارتنا* قد استخدم محفوظ اسما عاما ولا خاصا وجعل «الحارة» رمزا للعالم البشرية. جدير بالذكر أن الرواية في البداية «كانت تنشر في عام ١٩٥١ بشكل مسلسل في جريدة الأهرام» (ابويسانى، ١٤٢٩: ٥٩٧) وكانت كتابة هذه الرواية بمثابة دخول محفوظ في مرحلة الرمزية (محمدسعيد، ١٣٧٨: ١٩) وبما أن محفوظ قد جمع فيها بين الرمز والتأريخ فقد عرض نفسه أمام النقد الحادّ ويجب علينا أن لانعد الكاتب مؤرخا وهو محفوظ الروايي نفسه و«إنّ ما أراده محفوظ في أولاد حارتنا هو أن يعيد كتابة تاريخ البشرية منذ أن وجد في الكون الإنسان الأول وهذا لايعني بالطبع أن محفوظ استحال إلى مجرد مؤرخ فهو يظل في أولاد حارتنا كما في الكثير من أعماله الأخرى روائيا مؤرخا» (طرابيشى، ١٩٨٨: ٧)

هذه الرواية الجرئية قسّمت النقاد حولها إلى فئتين منهم من يدافع عنها ومنهم من يوجّه انتقادات عنفية إليها كجامعة الأزهر تتّهم كاتبها بالعداوة والإهانة الى الأديان. هناک بعض النقاد يوافقون الأزهر بأنه «ترسي القصة، الاشتراكية العلمية والماركسية الملحدة بديلا للدين والألوهية والوحي (شكرى،١٩٨٩: ٥) هذا الموقف العنيف أدى الى ردود فعل آخرين يتهمون الأزهر باضطهاد الجامعيين كما قال رضوان:«تكرر موقف الأزهر المعادي للعقل عام ١٩٢٦ مع كتاب الدكتور طه حسين الشعر الجاهلي وإذا قفزنا إلى الثمانينيات سنجد أن موقف الأزهر لم يتغير فبتأشيرة صغيرة من الشيخ عبدالمهيمن الفقي صودر كتاب «مقدمة في فقه اللغة العربية» للدكتور لويس عوض ... وكان الأزهر وراء مصادرة كتاب «الأنبياء في القرآن الكريم» للدكتور أحمد صبحي منصور ... (انظر: رضوان، ١٩٩٢: ١٤٠) وإن ينمّ عن مثل هذه النظرات شيء من الحقد و التشاؤم تجاه الأزهر فإننا نشاهد تصريحات لمحفوظ حول تأثره الشديد بالتيارات التنويرية آنذک تقوي هذا التشاؤم. كان لكل من طه حسين وهيكل وعقاد والمازني تأثير على أفكار محفوظ التحررية ولسلامة موسى تأثير خاص في محفوظ لاينكره أبدا. و«يقف سلامة موسى المفكر النصراني على قمة الهرم التنويري عند نجيب محفوظ وكان بمثابة الأب الروحي له كما أستاذه الأول الذي تربى على يديه منذ أن كان تلميذا على مقاعد الدراسة الثانوية» (العسيري، ٢٠١٠: ٧٩) وإضافة على هذه

العلاقة القوية كان لسلامة موسى تأثير من جهة أخرى ترتبط بالمجلة الجديدة و«قد كانت المجلة التي أنشأها سلامة موسى تتبنى المنهج العلماني في التفكير إضافة إلى المبادئ الاشتراكية وتهدف إلى تحرير العقل من كل ما يمتّ بالدين بصلة» (المصدر نفسه: ٨٠) يقول محفوظ ردا على سؤال حول تأثير سلامة موسى عليه: «نعم كان لسلامة موسى أثر قوي في تفكيري فقد وجهني إلى شيئين مهمين هما العلم والاشتراكية ومنذ دخلا مخّي لم يخرجا منه إلى الآن..» (شكرى، ١٩٨٩: ٨)

وليس بمثل هذا الاعترافات الصريحة من المستغرب أن لايُسمح *لأولاد حارتنا* بالنشر في موطنها حتى بعد وفات محفوظ. يرى البعض كالحجازي أن الاحتجاجات القاسية ترجع إلى عدم فهم هوية الرواية قائلا:«أما والكتاب الذي ألفه نجيب محفوظ ليس كتابا في الفقه ولا في العقيدة وإنما هو رواية فالفقهاء ليسوا جهة اختصاص لهم بالطبع أن يقرأوا الرواية.» (الحجازى، ١٩٩٢: ١٥)

وبكل هذا الضوضاء الضخم فإن للرواية مكانة خاصة في الأدب السردي العربي الحديث و«كاتب كبير مثل يحيى حقي يتمنى لو يبدع مثل هذا العمل الكبير وآخرون يرون فيها ذروة الإبداع الأدبي لنجيب محفوظ» (صبرة،١٩٩٢: ٣٥١) وإن ترك محفوظ بعد هذه الرواية، أعمالا كثيرة من القصص القصيرة والمسرحيات.

٣. المفاهيم والتعاريف

١.٣ العلم الحديث

القصد من العلم الحديث هو علم ظهر في الغرب بعد عصر النهضة والذي أصبح الشكل الغالب للعلم في الحضارة الغربية وكان أساس هذا العلم التجربة (قديردانش، ١٣٨٩: ٩٦) واختلاف العلم الحديث في القرن السابع عشر عن علوم العصور الوسطى كان بسبب التركيب الجديد الذي حصل من التفكير الرياضي والملاحظة التجريبية (محيطي‌اردكان، ١٣٩٢: ٣٢) يشير قدير دانش إلى أهم ميزات العلم الحديث منها: العقلانية والمعرفة الحسية

والمادية واليقين النفساني وبطلان القضايا الدينية والفلسفية وتجاهل المبدأ و الغاية للظواهر والنظرة الجزئية واكتساب القدرة بدل اكتشاف الحقيقة (قدير دانش، ١٣٨٩: ٩٩-١١١)

٢.٣ الخطاب السردي

هو يقابل الدال أو الملفوظ أو الخطاب أو النص السردي نفسه وحسب قول جينت «أن الحكي بمعنى الخطاب هو الذي يمكننا دراسته وتحليله تحليلا نصيا، وذلك لسبب بسيط هو أن القصة والسرد لا يمكن أن يوجدا إلا في علاقة مع الحكي، وكذلك الحكي أو الخطاب السردي لا يمكن أن يتم إلا من خلال حكيه قصة وإلا فليس سرديا، إن الخطاب سردي (بسبب علاقته بالقصة التي يحكي وبسبب علاقته بالسرد الذي يرسله)» (بوداود، لاتا: ١٦) بعبارة أخرى الخطاب السردي يعني أن القصة كيف تحكى؟ والفرق بين القصة والخطاب السردي هو نفس الفرق بين ماهية ما يروى و طريقة إرسال القصة (قاسمي‌پور، ١٣٩٣: ١٠)

٣.٣ الفكر الفلسفي

تطلق كلمة فكر أو التفكير – على وجه العموم – على كل حركة في تصوراتنا و مفاهيمنا... وهذا يعني أنه تظهر في وعيي صور وذكريات وما شابه ذلك في أي صورة من الصور وتتبع بعضها بعضا فالتعريف الأعم للفكر إذن هو حركة التصورات والمفاهيم (بوخينسكي، ١٩٩٦: ٦٧) فالتفكير الفلسفي ليس كما يتصور البعض – احتكارا للفلاسفة أو للمشتغلين بالفلسفة إذ أن الإنسان كإنسان يتميز عن غيره من الكائنات بعقل وهبه الله إياه ليفكر به والتفلسف [التفكير الفلسفي] ليس شيئا أخر غير استخدام هذا العقل... الإنسان يرى ظواهر الكون على اختلاف أنواعها فيتصورها ويكّون له فيها رأيا ثم يجتهد في تعرف عللها وعلاقة حقائق الكون بظواهره وهذا طريق فهم الشئ فهما واضحا فإن فعل هذا، قلنا إنه يتفلسف. (*المصدر نفسه: ٨*).

٤. العلم الحديث عند شخصية عرفة

يأتي عرفة إلى الحارة مساء وهذا يشير إلى أن الحارة تكاد تدخل في الظلام المطلق. يدخل العلم في هيئة فتى «غريب» من «ناحية الخلاء» أي «لا مكان». بهذه المفردات يريد محفوظ التأكيد على عدم انتساب العلم إلى مكان جغرافي خاص. وارتداء جلباب ترابي اللون وانتعال مركوب باهت متهتک مع رأس عار مشعث الشعر كلها دلالة على المكانة البذيئة للعلم في القرون الوسطى و وجهه المغبر آنذک. مع ذلک يصف محفوظ عرفة بأنه تلوح فی محجرية نظرة قلقة نافذة وفی حركاته ثقة واعتداد؛ ما يشير إلى طموح العلم والثقة بالنفس عنده. يروي محفوظ ورود عرفة في القصة على النحو التالي:

في يوم من الأيام قبيل العصر رأت الحارة فتى غريبا قادما من ناحية الخلاء يتبعه أخر كالقزم، كان يرتدى جلبابا ترابى اللون على اللحم ويشد على وسطه حزاما شطر جلبابه شطرين انداح اعلاهما وتدلى وامتلأ بأشياء فيه، وانتعل مركوبا باهتا متهتكا أما رأسه بدا عاريا مشعث الشعر غزيره وكان أسمر اللون، مستدير العينين حاد البصر تلوح فی محجرية نظرة قلقة نافذة وفی حركاته ثقة واعتداد (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٤٩)

بحضور عرفة في الحارة وتصرفاته وأقواله والأحداث التي تدور حوله تتضح لقارئ الرواية شيئا فشيئا الفكرة التي أراد محفوظ أن يقدمها حول العلم الحديث والتي يشار إليها بالترتيب:

١.٤ أصالة العلم و ماهيته

إن العلم هو ظاهرة عامة في العالم ولايمكن انتسابه إلى قوم أو شخص ونرى شخصية عرفة متناسبا مع هذ الفكرة حيث مع وصول عرفة إلى الحارة، يطلب الجميع معرفة هوية هذا الغريب وهو نفسه ينكر أو بل يمكن القول إنه هو أيضا لايعلم موطنه ونسبه. يقول عرفة رداً على امرأة سألتها عن هويته:

ـــ محسوبك عرفة، من أولاد حارتكم كالآخرين وهوعائد بعد غيبة طويلة (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٥٠)

لفظ «عرفة» مأخوذ من «عرفَ ـِ» و هو مصدر الفعل يشير بوضوح إلى أن هذه الشخصية هى رمز للعلم قد غاب غيابا طويلا. لايقول عرفة في تعريفه شيئا عن ابيه كانه نفسه لميفكر في وجود مثل هذا الأب حتى عندما يصرّ أحد اشخاص الحارة سائلا «ابن من؟» يجيبه بالسخرية:

ـ عرفة بن جحشة (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٥٣)

ولذلک، فهو يشتهر في الحارة بأنه طفل لقيط يثير شفقة الجميع. مثلا نرى أحد سكان الحارة يقول:

ـ يمكنه أن يدعى أنه ابن رجل من جبل أو رفاعة أو قاسم كما يشاء أو تشاء مصلحته، الله يرحم أمه (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٥١).

بهذه الإشارات والأقوال يعرّف محفوظ العلم (العصر الحديث) بأنه لايتعلق بمكان معين ولا بدين من الأديان أو بلد من البلدان كأنه شيء يمكن للجميع أن يتبنّيه وينسبه اليه خلافا على جبل ورفاعة وقاسم الذين ينتمون إلى حيّ من أحياء الحارة الكبيرة ولكن عرفة لايُعرف له أب ولا أمّ ولاينتمي إلى حارة ما وهذا ما أراد محفوظ من الإشارة الى إمكانية انتساب العلم إلى البشرية كلها.

٢.٤ العلم و إنهاء الأساطير

يصف الراوي الحارة عند دخول عرفة بأن الخرافة سيطرت عليها والناس يتذكرون جبل ورفاعة وقاسم في المقاهي وهم يعزفون الرباب ولكن هولاء المصلحين الماضين لا أثر لهم في خارج المقاهي:

ـــ المتأمل لحال حارتنا لايصدق ماتقول الرباب فى القهوات من جبل ومن رفاعة ومن قاسم، وأين الآثار التى تدلّ عليهم خارج نطاق القهوات؟ ... ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم إلا أسماء، وأغانى ينشدها شعراء المقاهى المسطولون وتباهى كل فريق برجله الذى لم يبق منه شئ وتنافسوا فى ذلك إلى حدّ الشجار والعراك (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٥٩)

يبدو من العبارات السابقة أن الأديان وأصحابها الأنبياء، مذكورة فقط في المعابد والمساجد والكنائس في قالب دعوات وصلوات بلاجدوى وبلا أثر وفي خارج هذه الأماكن المختصة للعبادة لايوجد إلا صدام وصراع أعمى بين المتعصبين بهذه الديانات حسب ما قال الله تعالى ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ (الروم/٣٢) وهنا يبرز دور عرفة في إنهاء هذه الخرافات والأساطير الحمقاء التي لانتيجة لها سوى الفتنة والعداء بين سكان الحارة:

ـ وتحول عرفة عن النافذة فى سأم متى تكفّ حارتنا عن حكى الحكايات؟ (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٦٠)

هذه العبارات التي تشمّ منها رائحة كراهية الديانات، يتمسک بها بعض النقاد ويتهمون الرواية باعتبارها إهانة للأنبياء ويكفّرون كاتبها بسبب هذه الإهانة.على سبيل المثال نرى قطب يأخذ على محفوظ كلّ مثل هذه العبارات ويقول «وجرأتها الواضحة على ما هو مقدس، بدءا من الله ومرورا بالأنبياء والرسل مع قلب الموضوع وإلصاق صفات دونية لاتليق بالأنبياء». (قطب، ١٩٩٢: ٣٤٥) فإن وضع الحارة السيء والمؤلم الذي يصوره نجيب بهذه العبارات يشير إلى توقع الناس لظهور نبيّ من جنس آخر يختلف تماما عن جبل ورفاعة وقاسم حتى لاتتكرر المأساوات السابقة. أما هذا النبي ليس إلا العلم الحديث المستقل عن الأديان في الطريقة والفكرة.

٣.٤ صراع العلم والدين

صراع العلم والدين في العصر التنويري والحديث يعدّ من أهم الرؤى فى الرواية؛ كاتبنا الذي قد درس الفلسفة وتأثر بالفكر الغربي بسبب أمثال سلامة موسى يقوم بتصوير العلم في الفكر الغربي وموقفه أمام الأديان تصويرا دقيقا ورائعا. السؤال الذي يطرح هنا ما هي خصائص العلم في الفكر الغربي والتي تجعله في تقابل وصراع مع الأديان؟ ميزات العلم الحديث يمكن تلخيصها في ثلاث ميزات رئيسة هي: العقلانية والمعرفة الحسية والماترياليـة (قدير دانش، ١٣٨٩: ٩٩-١٠٣) أدى هذه الصفات، إلى جانب عنف الكنيسة، إلى نوع من التضاد بين الدين والعلم يشير محيطي إلى بعض أسبابها: ١. عدم تواجد نصوص وحيانية

غيرمشوهة عند المسيحية ٢ـ دوغمائية الكنيسة على النص الديني ومظاهر الكتاب المقدس. ٣ـ الحرمة والقداسة الكاذبة حول بعض الآراء. ٤ـ الفساد الذي كان مسيطرا على الكنيسة ٥ـ إدانة النظريات العلمية من قبل الكنيسة ٦ـ عدم التمييز بين الدين نفسه والتفاسير الشخصية من الدين. ٧ـ مؤامرة أصحاب السلطة في إضعاف الكنيسة (محيطي أردكان: ١٣٩٢: ٣٣) وكأن الفكر الغربي فيه «العلاقة الأكثر أهمية بين العلم والدين هي علاقة الصراع» (أحمدي وآيت اللهى، ١٣٨٨: ١٣). أما السؤال الثاني الذي يطرح فهو ما شأن محفوظ الذي كان مسلما و قد عاش في الثقافة الإسلامية والعربية بمثل هذا الصراع؟ وهل مثل هذا الصراع بين مسيحية الكنيسة والعلم، يمكن أن نجده في التفاعل بين الإسلام والعلوم الطبيعية والإنسانية؟ والجواب أنه في الواقع «لم يكن مجال الصراع والجدل بين العلوم الطبيعية والدين» (محيطي اردكان، ١٣٩٢: ٣٦). وعلى سبيل المثال كل من العلماء المسلمين أمثال الخوارزمي والفارابي وأبوريحان وجابر بن حيان وابن سينا والشيخ البهائي وغيرهم لم ينكروا الدين ولم يتخلوا عنه على الرغم من خوضهم في مختلف العلوم الطبيعية. وعلى كلّ ما جاء يمكن القول أن محفوظ يمثّل في هذا الصدد الفكر الغربي ولا الإسلامي ولا العربي ولا المصري ولذلک لا يمكن اعتبار الفكر هذا عاما ولاعالميًا.

نعود إلى عرفة ودوره البارز في تبيين هذا الصراع من خلال أعماله وأقواله وأول كلام يدلّنا الى تفاقم الأمر يجرى على أفواه بعض سكان الحارة الخائبين المتشائمين في تحسين الأمور المعتقدين بالحتمية:

– المكتوب مكتوب،لاجبل أجدى ولارفاعة ولا قاسم، حظّنا من الدنيا الذباب ومن الآخرة التراب (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٥٥١).

وبعد ما رأى من عاقبة جبل ورفاعة وقاسم يبحث البشر عن طريقة جديدة لتحقيق سعادتهم هي (عرفة) أي العلم الحديث الذي يعتبر نبيّ العصر الحديث. وكما قال بعض النقاد أن محفوظ يشير هنا حسب زعمه أو زعم الغربيين «إلى استحاله توفيق العلم ملازما الدين وهما ضدّان لايتفقان». (عوض، ١٩٧٤: ٥٢) اليأس من الماضي والانقطاع عنه والأمل في العلم لحلّ العقد في طريقة السعادة الصعبة يتضح جيدا في ما يقول بعض الناس بعد ما رأوا من حذاقة عرفة في علاج الأمراض ظهرت لهم كالسحر:

– لاشأن لنا بالماضى، ولاأمل لنا إلا فى سحر عرفة، ولو خيّرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٥٥٢)

هكذا يفضلون الناس السحر (العلم) على الدين! وعرفة هو نفسه مَن زرعَ اليأس في قلوب الناس زاعما عدم نجاح المصلحين السابقين في توفير السعادة للحارة ويشكّک عرفة في كل شيء حتى في الجد الكبير وما يجري في البيت الكبير (رمزا الرب و العرش الإلهي) ويقول لزوجته:

– نعم أبوك يتحدث عن قاسم، وقاسم حدث عن جدنا هكذا نسمع ولكنا لانرى إلا قدرى وسعدالله وعجاج والسنطورى (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٦٨)

مع ذلك، فإنّ عرفة يقدر جهود جبل ورفاعة وقاسم (رموز الأنبياء) في إصلاح الحارة ويشيدهم على سعيهم ويحسب أنه ينهج منهجهم:

– لست أول من اختار المتاعب فى حارتنا، كان بوسع جبل أن يبقى فى وظيفته عند الناظر، وكان بوسع رفاعة أن يصير نجّار الحارة الأول، وكان فى وسع قاسم أن يهنأ بقمر وأملاكها وأن يعيش عيشة الأعيان، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٨٧)

ولذلک يؤكد عرفة على تغيير طريق السعادة وهذا الطريق لايسلک بأقوال السابقين (الأنبياء) ولكن بسحر العلم. يحاول عرفة دائما أن يعرف نفسه من خلال بعض الأعمال الطبية بأنه «ساحر» لأن السحر عنده بمثابة الإعجاز عند الأنبياء:

– أنا عندى ما ليس عند أحد ولا الجبلاوى نفسه عندى السحر وهو يستطيع أن يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٩٨)

يبحث عرفة فخورا بقدراته في السحر وراء ما يعتقد أن المصلحين السابقين فشلوا في تحقيقه وفي هذا البين يصف لنا محفوظ في صراع الدين والعلم (على زعم الفكر الغربي)، حالة خاصة لكل رجال الحارة وهي تعاطي الحشيش يتجنبها عرفة لأن العلم يعارض النشوة ويحتاج اليقظة ويصفه محفوظ بـ«أنه كان الرجل الوحيد فى الحارة الذى لم يقبل على الحشيش لحاجة عمله فى الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه، (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٨٦)

يستلزم العلم اليقظة والدقة في حين أن الحشيش هو أفيون ورمز لفقد الوعي والتخدير! يأتي به محفوظ متأثرا بسلامة موسى وبتأثر الأخير بنيتشه يصرح بوضوح بأن الدين هو أفيون

الجماهير. لانرى في أى عنصر من عناصر السرد في هذه الرواية صراحة القول بصراع الدين والعلم مثل ما جاء في تعاطي الحشيش وربما على هذا يهجم البعض محفوظ معتقدا بأن «المعنى العميق لهذه الرواية هو تخفيف الدين عن دوره في الحياة البشرية وتعزيز دور العلم ونتائجه» (القطب، ١٩٩٢: ٣٤٥)

هكذا نرى أن الأحداث والأقوال الروائية التي تشير إلى قدرة العلم في العصر الحديث والاعتقاد بأنه قادر على تحقيق جميع الآمال والاستغناء عن أي شيء غير العلم، يجعل بعض الناقدين يعتقدون أن قول «عندى السحر وهو يستطيع أن يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين» الذي صدر عن عرفة، صراحة في تفضيل العلم على الدين والرواية يؤيد هذه الفكرة بمثل هذه الأقوال ولكنهم غافلون عن اعتقاد محفوظ الآخر يتضح في نهاية الرواية حيث نرى العلم فاشلا وخائبا من هذا المنظور الغربي.

٤.٤ العلم و أسرار الكون

من النقاط المتميزة في الدلالة على العلم الحديث في رواية *اولاد حارتنا* يمكن الإشارة إلى الطموح والجشع اللذين يتّسم بهما العلم الحديث في الحصول على أسرار الكون. العلم الحديث الذي يجسده نجيب محفوظ في شخصية عرفة هو لايستبعد شيئا عن متناوله وهذا ما يدل عليه كلام عرفة مع عواطف:

– كذلك السحر فهو قادر على كلّ شئ، فضحكت من غروره وهى تنفرد بإصبعها على صدره وقالت:سحرك قادر على مداواة العين وعلى أشياء لاتحصى (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٨٣).

ويقول عرفة في مقام آخر: ... فلت لك إنه ليس للسحر من نهاية. (*نفس المصدر*: ٥١٦).

مثل هذا الفخر والطموح تكمن جذوره في تطرف الكنيسة في خصومة العلماء بحيث «إنّ السلوك العنيف والمتحيز للكنيسة مع العلماء من جهة والتقدم السريع للعلم في عصر النهضة فقد أدّيا الى ظهور هذه الفكرة بأن العلم يقدر على إدراک كل شيء وبذلک لا حاجة للدين. (محيطي اردكان، ١٣٩٢: ٣١)

أما ذروة الطموح والجرأة للعلم الحديث فتظهر في الرواية عندما يحاول عرفة بطريقة جريئة تشبه الجنون دخول البيت الكبير بحفر نفق تحت جدار البيت ليحصل على كتاب السحر العظيم وسرّ خلود الجبلاوي. لم يقدر عرفة نسيان هذا الكتاب الذي طرد الجبلاوي ابنه المحبوب بسبب التعدي إليه:

ـ هناك الكتاب .. كتاب السحر الأول.. سر قوة الجبلاوى الذى ضنّ به حتى على أبنه قد لايكون شيئا مما تتصور وقد يكون والأمر يستحق المخاطرة (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٨٩)

حرصه على كتاب السحر (أسرار الكون المستورة على البشر) قاد عرفة إلى أكبر خطأ في تاريخ الحارة وأدّى عمله الجريء إلى موت الجبلاوى (موت الإله) وبالتالي خضوع عرفة أمام القدري (رمز السلطة) وكان قبل ذلک قصده أن يخضع أمام الجبلاوي في البيت الكبير (العالم العلوي) وأن يُخبر الجبلاوي بأنه ما أراد ولايريد إلا خيرا لأولاد الحارة:

ـــ وأن يرى الجبلاوى واقفا حياله، سيسجد عن قدميه مستعطفا ويقول له إنى حفيدك لاأب لى ولاهدف إلا الخير، فافعل بى ما تشاء (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٩٢).

كان أول هدف لعرفة من المجيء إلى الحارة هو الحصول على صندوق الموقوفات المخبوء في بيت الجبلاوي. الصندوق هذا، رمز للأسرار الكونية التي أخفاه الله عن البشر ولم يسمح لأحد النيل منه ولذلک قد جعل عرفة أول همّه في النيل من الصندوق أي كتاب السحر الأول ويعتقد أن هذا الصندوق في متناول يديه لأنه قادر على كلّ شيء. الإشارات والأحداث التي رُوي عن عرفة وقد أشرنا إلى بعضها مسبقا كلها تشير إلى ميزة مهمة من ميزات العلم في العصر الحديث أي طموحه وثقته بالنفس في الحصول على كل مجهول وتحقيق كل شيء مستغنيا عن الأديان والمعتقدات الدينية.

٥.٤ العلم و موت الإله

وآخر فكر فلسفي نشاهده بدلالات لفظية وبعض العناصر السردية هو «موت الإله» يصوره محفوظ في موت الجبلاوي بسبب مغامرة عرفة في دخول البيت الكبير. موت الإله أى إبعاد

الله عن الحياة المادية البشرية هو من أهمّ ميزات العلم الحديث. «التخلي عن الله لايعني إنكاره أو إنكار قدسيته بل نوع من نسيان الله. قد ابتعد البشر عن الله في العصر الحديث» (پارسی‌نژاد، ١٣٧٨: ٧٨) موت الإله والآلهة ليس فكرة جديدة وفي نظر البعض تعود الفكرة إلى فلسفة «شادان» (علوی‌تبار، ١٣٩٣: ٣) يأتي نيتشه من كلام زرادشت بأن الألهة قد ماتوا ونحن نريد الآن أن يبقى الإنسان الخارق (المثالي) حياً. الإنسان الخارق هو خالق القيم و المفاهيم الجديدة (کیخسرو و محمدی، ١٣٨٩: ٩٠).

هذه الفكرة تتجدد في عصر النهضة والعلم الحديث في أقوال نيتشه وأمثاله وتتكثر بوضوح وعلى سبيل المثال «خفض غالیلة الخير الأعلى إلى حد العلة الأولى ورافقه في هذه الفكرة كلّ من دكارت واسبينوزا. (محيطی اردكان، ١٣٩٢: ٣٢) ومن وجهة نظر نيتشه أن الإيمان بالله فقدَ ضرورته في عصرنا هذا (علوی‌تبار، ١٣٩٣: ٤).

ومن البداهة أن ما يطرح في رواية *أولاد حارتنا* عن الإله وموته لايمتّ بالإسلام بل هذا الإله هو في الحقيقة إله الإنسان الغربي أو صورة من الله في الفكر المسيحي. إذن لميحصل هناک موت بل في الواقع حصل قتلٌ. وهذا ما يصوره محفوظ بمهارة وذكاء في الرواية وعرفة (العلم الحديث) يعتقد أنه كان هو السبب في قتل الجبلاوي. قتلٌ من غيرقصد يضحّي فيه عرفة الإله بسبب طموحه وفضوله.

يشير محفوظ قبل موت الجبلاوي إلى أقوال سكان الحارة يتعجبون من صبر الجبلاوي على الظلم الذي يعاني منه سكان الحارة وصمت الجبلاوي كأنه لايرى ولايسمع شيئا من كل هذا الظلم الشامل. بعبارة أخرى إن موت الإله وقعَ في الأفكار قبل أن يظهر بالأفعال بزعم تغافل الإله عن وضع الحارة:

– ياجبلاوى .. حتى متى تلازم الصمت والاختفاء، وصاياك مهملة وأموالك مضيعة أنت فى الواقع تسرق كما يسرق أحفادك (أولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٧٥)

– وهتف الصغار "هيه" وقهقه كثيرون أما العجوز فاستدرك صرخة: يا جبلاوى ألاتسمعنى؟ ألاتدرى بما حلّ بنا؟ لماذا عاقبت إدريس وكان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا؟ ياجبلاوى! *(نفس المصدر:* ٤٧٥)

هذه الهتافات التي يشير إليها محفوظ، إشارة إلى شكوة الناس من الجبلاوي بسبب صمته أمام الظالمين كأنهم يشكّون في وجوده

الأذهان نسيت الله وقبلت موته قبل أن يموت حقا. ونرى أخيرا ينتشر خبر هام في الحارة يخبر عن موت الجبلاوي وهذا الخبر رمز لموت الإله في العصر الحديث:

– من بعد العمر الطويل مات الجبلاوى! (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٤٩٩)

هذا ما اعتقده اغلب الناس ولكن محفوظ لميغفل عن تصوير قليل من الناس (رمز المؤمنين حقا) على لسان امرأة لاتصدق موت الجبلاوى:

– فقالت بارتياع ماقَتل الجبلاوى أحد وماكان فى وسع أحد أن يقتله (*نفس المصدر:* ٥٣٨).

كما أشرنا في بداية هذا الجزء إن موت اله ليست فكرة بديعة اختلقه محفوظ في روايته حتى يتّهمه الناقدون المتطرفون بأنه قد قلّ عن شأن الله عزوجل بل هذه الإشارات تصوير واقعي بحت يعرضه لنا محفوظ حول الله في ظل الاعتقاد بالقدرة العلمية الفائقة فنرى الرواية تصوّر لنا الجهات الثلاثة حول وجود الله وعدم وجوده في العصر الحديث؛ الأول هو العلم وأصحابه الذين يعتقدون بأن العلم يكفيهم لرفع حاجات البشر وهم المتسسبون في موت الإله والثاني جمعٌ غفير من الناس المنقلبين عن الدين والمعترفين بقدرة العلم ومتبعيه والثالث هم المؤمنون القليلون لايصدقون موت الإله ولايقبلون حولا ولا قوة إلا بالله.

٦.٤ براءة العلم

وعلى الرغم من تبديل عرفة من مصلح اجتماعي وباحث عن طريق السعادة إلى عميل ودمية بيد السلطة فمحفوظ لايعتبر العلم آثما ومخطئا على كل حال وفي جزء من الرواية يصور لنا براءة العلم وعصمته بطريقة رائعة لأن عرفة لميرد للحارة إلا خيرا ولكنه وقع في فخّ السلطات من سوء حظه ودون رغبته وكما قيل إن الأعمال بالنيات فإنه كان ينوي الخير وعكس الأمر عليه. وعندما كان عرفة يمضي الأيام خائبا ومحبوسا في بيت ملئه الترف والراحة المزيفة وكان حراس قدري يراقبونه ليلا ونهارا ففي يوم من الأيام قربَت منه عجوزة في أحد الأزقّة بهدوء و«فقالت

بصوت هادئ كنور القمر قال [الجبلاوي] لى قبل صعود السر الإلهى: «اذهبى إلى عرفة الساحر وابلغيه عنّى أن جده مات وهو راض عنه» (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٥٣٨).

دهش عرفة من كلامها لأنه هو كان السبب في موت الجبلاوي ولكن الجبلاوي كان راضيا عنه لجهوده في إصلاح الحارة. هذا الحدث ينبّه عرفة كأنه يصحو من نوم الغفلة العميق ويقرر التحرر من أيدي السلطة.

– قال عرفة بهدوء وتصميم: قررت أن أهرب. (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٥٤١).

لأن رضا الجبلاوي قد أثر فيه بشدة وأحيا في قلبه أمل العودة الى البيت الكبير:

– إن جدى أعلن رضاءه عنى رغم اقتحامى بيته وقتلى خادمه (*نفس المصدر:* ٥٤١)

وبما أن عرفة كان معترفا بأنه المتسبب في موت الجبلاوي فقد قرر إعادة الحياة إلى الجبلاوي، وبالتصريح أن العلم الحديث الذي قد أخرج الله من حياة البشر يعترف بهذا الخطاء:

– وهيهات أن أنسى اننى المتسبب فى موته لذلك فعلىّ أن أعيده إلى الحياة إذا استطعت (*نفس المصدر:* ٥٤٢)

إن العلم أمر مقدس ولانرى أحد ينكر مكانة العلم والعلماء والقرآن الكريم نفسه يشيد مكانتهم حيث يقول الله تبارک وتعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون و الذين لايعلمون﴾ (زمر/ ٩) و«العليم» من أهم أسماءه جلّ جلاله. إن الله هو العالم الأول بل هو أول العلم وآخره ولذلک نرى إشارة رائعة من محفوظ إلى العلم في هذا الجزء بأن الله لايغضب على العلم لأن ذات العلم يستلزم التجسس والاكتشاف ولو أدّى إلى نتيجة مفزعة كموت اله. والعلم نفسه معترف بأنه قد أخرج الله من حياة الناس فهو الأول من يلزمه إعادة الله إلى الحياة هذه الفكرة الجميلة التي نراها في الرواية والتي يصفها محفوظ أجمل وصف هي أقرب الى التفكر الشرقي والإسلامي حول مكانة العلم الحقيقية ومكانة العلماء واهتمام الله بهم بصفتهم أشبه الناس إليه والعلماء أشد الناس خشية وهكذا يصفهم الله تبارک وتعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر/ ٢٨) إذن هم أحقّ الناس لرضى الله وغفرانه وهذا الوصف الجميل للعلم في الرواية هو جدير بالتقدير والتكريم لا التكفير.

٧.٤ العلم و خدمة السلطة

لاينسى محفوظ علاقة العلم والسلطة وجدلية هذه العلاقة واعتماد القوى السياسية على العلم واستخدامه لأغراض سياسية من أجل تعزيز قواعدها المختلفة. إنّ العلم الحديث من خلال تقديمه التقنيات الحديثة يخدم السلطات في مجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية ومن جهة أخرى يستلم الدعم والمكانة من قبل السلطات للبقاء على ساحة المنافسة والتقدم العلمي والمادي لأصحاب العلم. إذن تعتمد حياة العلم على حياة السلطة الحاكمة وحياة السلطة تعتمد على بقاء العلم وتطوره حسب أهداف السلطة وفي مثل هذه الأجواء يفقد العالم والباحث هويته الإلهية والروحية بحيث «يصبح في الحضارة المادية الغربية كل شئ بما في ذلک العلم ادوات في تحقيق الأهداف المادية» (قدير دانش، ١٣٨٩: ١١٠).

الخضوع واعتماد العلم على السلطة في العصر الحاضر يتمثلان جيدًا في هذه الرواية على شخصية عرفة. حيث يؤدي طموح عرفة [العلم] إلى وفاة الجبلاوي [موت الإله] وإساءة استخدام الكرات النارية [رمز القنبلة النووية والتفجير العلمي] لايفيد أهل الحارة ابدا بل ينتهي إلى إسارة العلم في يد قدري [السلطة السياسية] وحياته وحياة عائلته تصبح رهين اشارة السلطة مادام يصنع لها الكرات النارية أكثر فاكثر [تخزين الرؤوس النووية في بعض البلدان]:

وفي دلالات على هذه المفاهيم يقول قدرى لعرفة:

– لن تهلك مادمت تطيعنى (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٥١٠).

وصفقة العلم والسلطة يدّل عليها هذا الحوار بين عرفة وقدري:

– أتستطيع أن تصنع مثلها؟ فقال بثقة: بكل تأكيد. فشبك ذراعية على صدره من شدة الانفعال وقال: أريد منها الكثير. فقال عرفة: سيكون لك منها ماتشاء *(نفس المصدر:* ٥١١).

ومثل هذه الحوارات والأحداث في الرواية يدل على أن «عرفة يمثل العلم الذي أسئ استخدامه واستغله الحكام لحمايتهم وتحقيق مآربهم، العلم الذي ضل عن طريقه وتسبب دون أن يقصد في تعاسة الناس» (صبرة، ١٩٩٢: ٣٥٨) قد أثبت التأريخ أن السلطات توفر لأصحاب العلم حياة طيبة ولكن غيرسعيدة في بعض الأحيان من أجل استغلال قدرات العلم؛ يقول قدري لعرفة:

– لاترهق نفسك بالعمل نظير الملاليم، تفرغ لسحرك فى حمايتى، و سيكون لک كلما تشتهيه نفسك! (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٥١٣)

وبهذا الهدف تتغير حياة عرفة تماما وينتقل وزوجته الى بيت أحلام:

– وجدوا أنفسهم فى مأوى كالحلم وراحوا يطوفون بالحديقة الغناء والمنظرة الأنيقة، والسلاملك والبهو إلى غرف النوم والجلوس والسفرة فى الدورالثانى ... وارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة وتنفسوا هواء نقيا وتشمموا روائح ذكية *(نفس المصدر:* ٥٢٠)

وهنا وفي هذا الترف المتاح يفقد العلم آخر ما بقي من استقلاله وحريته حتى يصبح أداة بيد المستكبرين. مَثلُ العلم في هذا الموضع كمثل سيف أو هراوة بيد طاغية:

– فقالت عواطف: ستكون على خير الأحوال فتوته الجديد. فقال حنش مؤيدا: نعم، فتوة سلاحه زجاجة بدلا من النبوت، *(نفس المصدر:* ٥١٤).

وأخيرا بهذه الخدمة الكبيرة التي قدّمه عرفة أصبح «قدري» القدرة الأعلى بين الفتوات بلا ندّ وهو في كل يوم يستخدم الكرات النارية لإرعاب منافسيه وإشعارهم بأنه بامتلاكه الكرات النارية لم‌يعد بحاجة اليهم. والطريف أن «قدري» يتظاهر تحرير الحارة من طغيان الفتوات لكن قصده الخفي هو تركيز السلطة في شخصه. يصف محفوظ جدلية بقاء السلطة ببقاء العلم في حوار بين عرفة (العلم) وقدري (السلطة) على لسان عرفة حيث يشير عرفة الى أن السلطة الحقيقية ستبقى في حوزه العلم بما أن العلم هو السلطان:

– أنت اليوم لافتوات لك، ولاقوة عندك إلا بالقوارير، وما لديك منها لايغنى عنك شيئا، فإذا متُّ أنا اليوم تبتعني غدا *(نفس المصدر:* ٥٢٤).

يتمتع عرفة بعيشة الترف ولكن بلاحرية وبلا كرامة بل مفعم بالخزي والعار وهذا كل ما حصل عليه من سحره؛ لاخيار له إلا المسايرة والانقياد للسلطة حفاظا على حياته.

٨.٤ هزيمة العلم

إن الباحث عن دلالات هزيمة العلم الحديث عبر الأحداث السردية في الرواية، يواجه حدثا مؤلما بل كارثة مأساوية ترمز عن ذروة الهزيمة حيث يُقبض على عرفة حين الهروب يدفَن حيا

وبجنبه زوجته عواطف [رمز الأحاسيس البشرية] كأن الكاتب لايكتفي بأن يكون العلم وحده ضحية مطامح السلطة ويجعل الشعور والإحساس الإنساني ضحية على جنب العلم نفسه. وقع هزيمة العلم وموته من قبل عندما تسبب قتلَ الجبلاوي وصار لعبة بيد السلطة ونرى عرفة في غاية الذل حينما يلقونه في القبر ويسوّون عليه التراب وهو يلفظ انفاسه الأخيرة ولكنه يرجو العفو:

– فقال فى قنوط: كنت ومازلت فى خدمتك (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٥٢١).

هذا عاقبة عرفة يرضخ أمام قدري بخيبة بالغة ورغم أنه لم‌ينس رسالته ويهمس في قلبه:

– أيها اللئيم الذى أوقعنى فى سجنه ماأردت السحر إلا للقضاء عليك لا لخدمتك، اليوم يمقتنى من أحبهم وأود خلاصهم (*نفس المصدر:* ٥٢٢).

وهذه الهزيمة تلازم عرفة الندامة وكان قصده بعد النجاح في الهروب إعادة الحياة إلى الجبلاوي وهذا ما كان يخفيه عن قدري حتى يتمكن من الهروب ولذلک عندما سأله قدرى في يوم عن ذروة سحره فأجابه في نفسه:

– أردّ إلى الحياة الجبلاوى (*نفس المصدر:* ٥٣٥).

قرر عرفة الهروب غافلا عن أن عملاء قدرى يراقبونه طوال النهار والليل. خرج عرفة من بيت الترف وعزم زيارة عواطف التي قد تركته بسبب خيانته إياها قبل أيام وتعيش حاليا مع عجوزة في بيت محقر. عواطف هى رمز لأحاسيس ومشاعر بشرية لطيفة ويريد محفوظ برجوع عرفة الى عواطف أن يشير إلى أنّ العلم وحده بغير مرافقة العواطف لايستكمل أبدا. وتقبل عواطف أخيرا متابعة عرفة في الهروب. يفرّان إلى خارج الحارة ومعهما زميله وصديق عمره «حنش». لكن عملاء قدري يقبضون عليهما ويدفنونهما في القبر حيّين. يصرخ عرفة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة متأملاً في إصلاح الحارة بعودة حنش الذينجح في الهروب:

– حنش هرب بكل الأسرار، هرب وسوف يعود يوما بقوة لاتقاوم فيخلص الحارة من شرِّك. (*نفس المصدر:* ٥٤٦).

في دفن عواطف على جنب عرفة دلالة على (هلاک العلم والإنسانية) تحت أقدام (السلطة) وهذا نهاية مؤلمة للمصلحين المرسلين كجبل ورفاعة وقاسم أو غيرمرسلين كعرفة

بذلوا جهودم ودماءهم من أجل سعادة الحارة ولكن الأمر في النهاية رجعت الى الفتوات (المتكبرين الظالمين) والحارة قد خاضت في الظلام والتعاسة. ما بقي لأهل الحارة إلا رجاء وحيد وهو عودة حنش والذي تمكّن من الهروب وغاب عن الأنظار، ينتظر الناس أن يعود يوما ما وينجى الحارة من الفتوات؛ على هذا يتغيب حينا بعد حين بعض من شباب الحارة يزعم الناس أنهم ألتحقوا بحنش. وأهل الحارة ينتظرون ويرجون عودتهم مع كل منجزات المصلحين السابقين:

– حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود إلى الحارة لينتقم من الناظر شر انتقام،... فلم يعد أحد يشك فى الدور المنتظر أن يلعبه حنش فى حياتهم،... وامتلأت القلوب عطفا على حنش فى مهجره المجهول، بل امتدّ العطف إلى ذكرى عرفة نفسه وتمنى الناس لو يتعاونون مع حنش فى موقفه من الناظر لعلهم يحرزون بانتصاره عليه نصرا لهم ولحارتهم وأمنا لحياة خير وعدالة وسلام (اولاد حارتنا، ١٩٨٦: ٥٥١).

العبارات الأخيرة التي يصور بها محفوظ انتظار أهل الحارة لعودة المنتظر وانتقامه وانتصاره على الفتوات الباغين وعاقبة الخير والعدالة والسلام والتي يتمنيها الناس للحاره كلها مؤشرات ودلالات قريبة بل مباشرة بفكرة «ظهور الموعود» المنتظر أو «فكرة المهدوية» عند كثير من المسلمين.

٥. النتائج

الرواية (أولادحارتنا) باعتبارها من أبرز الأعمال الرواية المعاصرة، تحتوي في جانبها الفني والسردي، على جوانب فلسفية وسياسية وتاريخية أثارت اهتمام بعض علماء الدين أكثر من نقاد الأدب وأدّت إلى هجمة عنيفة تجاهها والسبب هو استخدام تاريخ الأنبياء والأديان والعلم ودلالات رمزية حول الله تعالى. وبدراسة وتحليل الجزء الأخير من الرواية أي دور عرفة سنجد مؤشرات الفكر الغربي وموقفه تجاه العلم متمثلا في شخصية عرفة يظهر بصفة نبي من جنس أخر لنجاة الحارة:

– من الدلالات المتجلية في شخصية عرفة، يمكن الإشارة إلى أصل العلم المجهول وعدم انتمائه إلى شعب خاص أو دين معين يرمز به في غياب والده. والأديان تصور تصويرا

أسطوريا. صراع العلم الحديث والدين ثمّ الإيمان الكاذب بقدرة العلم في الحصول على الأسرار و تحقيق السعادة يرمز عنه بطموح عرفة في دخول خلوة الجبلاوي وأيضا موت الجبلاوي والذي يشير الى فكرة «موت الإله» في قسم من الفلسفة الغربية.

– لاينتهي تصوير العلم في شخصية عرفة على الرموز السابقة ونرى على وجه آخر اسارة العلم بيد السلطة من أجل تحكيم قواعدها المهيمنة وأيضا هزيمة العلم في انجاز مهمته تعدّان من أبرز الدلالات في توظيف الشخصية السردية لتبيين الفكر الفلسفي عند محفوظ. ومن الدلالات التي يمكن اثباتها إلى الفكر الشرقي أكثر من الفكر الغربي، هي رضا الله عن العلم على الرغم من هزيمته وخطأه الكبير وأيضا الجهد الجهيد الذي بذله العلم لإعادة الحياة إلى الله (إعادة الديانة إلى الحياة البشرية) حيث يشير الى مكانة العلم والعلماء عند الله تبارک وتعالى وأخيرا استشهاد العلم بشكل مؤلم (دفن عرفة حيا) وانتظار الناس لعودة مصلح جديد أي ظهور المنجي الموعود كل هذه الدلالات تنتمي الى الفكر الفلسفي المحبّب عند محفوظ وأقرب إلى الفكر الإسلامي حول علاقة العلم والدين.

المصادر و المآخذ

الكتب

بوخينسكي، چوزيف، (١٩٩٦) **مدخل الى الفكر الفلسفي**، ترجمه وقدّم له وعلّق عليه محمود حمدي زقزوق، القاهرة: دار الفكر العربي.

الذوادي، رشيد، (١٩٨٦م)، **أحاديث في الأدب**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

سلامة، محمدعلي، (٢٠٠٦م)، **نموذج الشخصية الدينية في روايات نجيب محفوظ**، اسكندرية: دارالوفاء لدنيا الطباعة و النشر، ط٢.

شكرى، محمديحيى معتز، (١٩٨٩م)، **الطريق إلى نوبل ١٩٨٨ عبر حارة نجيب محفوظ**، القاهرة: أمة ثري للطباة و النشر، ط١.

طرابيشي، جورج، (١٩٨٨م)، **الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٣.

محفوظ، نجيب، (١٩٨٦م)، **اولاد حارتنا**، بيروت: دارالآداب، ط٦.

محمدسعید، فاطمةالزهراء، (۱۳۷۸ش)، **سمبولیسم در آثار نجیب محفوظ**، ترجمه نجمه رجایی، مشهد: دانشگاه فردوسی، چ۱.

المجلات

ابویساني، حسین، (۱۳۸۸ش)، «مقایسه میان اولاد حارتنا و سنگ صبور»، **لسان مبین**، پاییز و زمستان ، ش۲، صص۷-۱۹.

ابویسانی، حسین، (١٤٢٩ق) «اولاد حارتنا نظرة دینیة و اجتماعیة»، **آفاق الحضارة الإسلامية**، العدد٢٢، صص ٥٨٧-٦٠٦.

احمدی، فاطمه و حمیدرضا آیت اللهی، (۱۳۸۸ش)، «بررسی مقایسه‌ای روابط علم و دین در الهیات جدید مسیحی با تأکید بر آرای مک گراث باربور، پیترز» **مجله ادیان و عرفان**، ش۱، پاییز و زمستان، صص۱۱-۲۷.

الحجازي، أحمد عبدالمعطي، (١٩٩٢م)، «اولاد حارتنا رواية و ليست نصا دينيا» **ادب و نقد**، نوفمبر، العدد٧٥، صص ١٤-١٩.

پارسی‌نژاد، کامران، (۱۳۷۸ش)، «تحلیل رمان (از پیش‌ساختارگرایی تا پسامدرنیته)»، **ادبیات داستانی**، زمستان ، ش٥٢، صص٧٤-٧٨.

رضوان، طلعت. (١٩٩٢م) «اولاد حارتنا بين الإبداع الأدبي و النص الديني» **فصول**، ربيع ، العدد٤١، صص ١٤٠-١٤٨.

صبري، أحمد، (١٩٩٢م)، «اولاد حارتنا و مشكلة سوء الفهم»، **فصول**، صيف، العدد٤٢، صص٣٥٥-٣٦١.

علوی‌تبار، هدایت و سعیده آزادی امامی، (۱۳۹۳ش)، «مرگ خدا و پیامدهای آن در فلسفه نیچه»، **جستارهای فلسفه دین**، سال۳، ش۲، پاییزوزمستان ۹۳، صص۱-۲۳.

عوض، ريتا، (١٩٧٤م)، «اولاد حارتنا بين الرؤيا و التعبير»، **الآداب**، سنة ٢٢، يونيو ، العدد ٦، صص٥٠-٥٤.

قاسمي‌پور، قدرت، (۱۳۹۳)، «آمیختگی داستان وگفتمان روایی در روایتهای پسامدرنیستی»، **فصلنامه تخصصی نقد ادبی**، سال۷، شماره ۲٦،تابستان ۹۳، صص۷-۲۲.

قدیردانش، محمد، (۱۳۸۹ش)، «ویژگیهای علم مدرن، با تأکید بر علوم انسانی»، **معرفت فرهنگی و اجتماعی**، سال۱، ش٤، پاییز، صص۹۵-۱۲٤.

قطب، محمد، (١٩٩٢م)، «مناقشات عن الرمز و المثال (قراءة حول اولاد حارتنا بين الإبداع الأدبي و النص الديني)»، **فصول**، صيف، عدد٤٢، صص ٣٤١.٣٥٠.

كيخسرو دولتياری، يزدان و روحا... محمدی، (١٣٨٩ش)، «اخلاق در آثار فدريش نيچه»، **غربشناسی بنيادی**، سال١، ش٢، پاييزو زمستان، صص٦٩-٩٥.

محيطی اردكان، محمدعلی، (١٣٩٢ش)، «پيشينه رابطه علم و دين در اسلام و غرب»، **معرفت**، سال٢٢، ش١٨٨، مرداد، صص٢٩-٤٢.

الرسائل و الأطروحات

بوداود، لامية، (لا تا) **تحليل الخطاب الميني روائي في الجزائز رواية (أوشام بربرية) لجميلة زنير أنموذجا**، مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستر في الأدب العربي الحديث، جامعة منتوري، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.